صفحات من لبنان

بقلم العميد الركن المتقاعد أدونيس نعمة

قبور الباشاوات في الحازمية

في اول طريق بيروت - دمشق، في محلة الحازمية، تقوم مدافن بعض متصرفي جبل لبنان، وبعض اعضاء اسَرهم، واثنين من مشاهير اللبنانيين استحقّا ان يُدفنا في هذه المقابر الرسمية جزاء ما اداياه من الخدمات الجلّى لوطنهما لبنان.

تقوم هذه المدافن ضمن فسحة من الارض مرتفعة عن الطريق ومسوَّرة بالقضبان الحديدية. بعدما كانت مشيَّدة عند مدخل طريق عربات بيروت ـ بعبدا في الحازمية، لكنها نُقلت من هذا المكان الى موقعها الحالي لاغراض تتعلق بتخطيط طريق بيروت ـ دمشق.

تضم هذه الاضرحة بقايا:

- فرنقو باشا (المتصرف الثاني) الذي توفي في بيروت سنة 1873 ودُفن في الحازمية لانه اختارها مدفنا له في حياته، حيث كان يجلس فيها للنزهة.
- ولده فؤاد بك الذي دُفن الى جانب والده.
- كاترين زوجة واصا باشا التي توفيت بداء السرطان.
- زوجة كوبليان، وهي ابنة واصا باشا.
- باشقو واصا باشا المتصرف الرابع.
- احمد فارس الشدياق الاديب المعروف.
- الميرالاي ملحم بك ابوشقرا قائد الضابطية اللبنانية.

ما يسترعي الانتباه بناء هذه الاضرحة باشكال هندسية رائعة ببلاطها الرخامي الصافي، وانصابها وتماثيلها الدقيقة، الى جانب قبر احمد فارس الشدياق المبني على طراز اسلامي ترتفع فوقه قبة من الحجارة الدقيقة الصنع. لا ازال اذكر انه لما نُبش ضريح الشدياق ورُفع النعش من حفرته لنقله الى المدافن الجديدة وُجدت جثته شبه سليمة.

التمهيد لهذا المقال بهذه الكلمة هو لنلفت انظار المسؤولين، وخاصة مديريتي الاثار والسياحة والاصطياف، الى قلة العناية والصيانة، وما يكتنف هذه المقابر من الاهمال والنسيان وهي التي كان يجب ان تكون موضع عناية السلطات، حفظا لحرمة مَن يثوي فيها من الرجال الكبار الذين خدموا لبنان بسياستهم وقلمهم وسيفهم، ولانها واقعة على قسم من الطريق بحيث ترشقها عيون المارة الذين يسلكون طريق بيروت - الشام يوميا صعودا ونزولا. الواقع ان هذه الاضرحة، وما يحيط بها من اسوار، اتُخذت مناشر لتنشيف الغسيل وعرض الامتعة المنزلية، وارضها مكسوة بالعشب والشوك والحسك.

لعل اشهر مَن رقد في هذه المقابر واصا باشا المتصرف الرابع، الذي كان عهده، رغم نياته الطيبة وما انجزه من المشاريع العمرانية المفيدة، اسوأ عهد عرفه لبنان القديم، لان الله ابتلاه بصهر له اسمه كوبليان اصطحبه الى لبنان وعيَّنه مديرا لـ"البوليتيك"، وهو الذي لم يتدخل في قضية الا فاحت من ورائها روائح الرشوة والارتكاب.

ولما كان كل شيء يتعلق بحكام لبنان القدامى، ومَن كانوا في خدمتهم من الرجال الاوفياء لوطنهم، يمت بصلة وثقى الى تاريخنا الوطني، او ينزل منه على هوامشه، بحسب درجة اهميته، فقد استنسبنا ذكر نبذة تتعلق بواصا باشا لما فيها من الفائدة للمطالعين.

هنا قرار تعيين واصا باشا:

"قرار رقم 1883

لما كان منصب متصرف لبنان قد خلا بانتهاء مدة رستم باشا، قد تنازل جلالة السلطان الى تعيين واصا باشا، مستشار والي اندرينوبل، وحاكم المدينة المذكورة، متصرفا جديدا. وقد اجتمع ممثلو الدول الموقعون على نظام لبنان الاساسي في 27 تموز سنة 1868 في 22 نيسان سنة 1887، في مؤتمر عند ناظر خارجية جلالة السلطان، واجمعوا بهذا القرار على اثبات

رسم قديم لقبور الباشاوات في الحازمية يحرسه احد رجال الضابطية.

واصا باشا يحيط به المدراء العامون لمجلس الادارة: كوبليان، ابرهيم الاسود ، ناصيف الريّس، فرنسوا دياب عام ١٨٨٩.

الاتفاق المقدَّم الذي حصل بينهم وبين الباب العالي على هذا التعيين.

يعلن الباب العالي، بالاتفاق مع ممثلي الدول، حفظ مندرجات القرارات المتعلقة بمدة عشر سنوات المعيَّنة لحكم المتصرف.

وعليه قد امضى معتمدو الدول ذات الشأن هذا القرار ووضعوا عليه ختم شعائرهم.

حرر في الاستانة في 8 ايار سنة 1883.

تواقيع ممثلي الدول".

وقد صار تبليغ هذا القرار الى واصا باشا، فما لبث ان زايل مركز وظيفته وقام بتوديع اصحاب المقامات في الاستانة وابحر متوجها الى بيروت مع افراد اسرته ورجال حاشيته.

جاء في جريدة "لسان الحال" الصادرة في تلك الايام ما يلي باللغة الصحافية لذلك الوقت:

"صبيحة يوم الاربعاء الواقع في 15 ايار سنة 1883 دخل ميناء بيروت المركب النمسوي يقل حضرة دولتلو واصا باشا حاكم لبنان. ولما رسا المركب توجه اليه مسلِّما قومندان الكورفيت، ثم المسيو بونبو ويس قنصل فرنسا والياس افندي غانم ترجمان القنصلية نائبَين عن المسيو بترينو نيو القنصل جنرال، ثم تلاهم كبراء مأموري لبنان وكثير من الاعيان.

وفي نحو الساعة الثانية عشرة خرج من المركب الى البر هو وال بيته الكريم وسائر بطانته، فاستقبله عند الشاطىء دولتلو رستم باشا (المتصرف السابق)، وذوو السعادة ابراهيم حقي باشا متصرف بيروت، وهولو باشا معتمد ابهة الوالي وسائر الامراء والكبراء من مأمورين وكرام الاهلين، واحتشد على الشاطىء الالاف من عامة الاهلين على اختلاف طبقاتهم.

وانطلقت مدافع الثكنة (السرايا اليوم) اجلالا وتكرمة، ثم دعاه دولتلو رستم باشا الى عجلته، فاجاب وسار والموسيقى السلطانية والجند والجموع تحيّيه والثغور منها بواسم، وكانت قلوب الملاقين في البحر وجموع الواقفين على الارصفة متكاتفة.

وظل واصا باشا سائرا بمن معه الى دار مضيفه الوجيه يوحنا شكور طراد التي بلغت في التأنق مبلغا لا يحيط به وصف الواصفين.

وقد ادّب صاحب الدار لضيفه الكريم مادبة شائقة دعا اليها دولتلو رستم باشا والمتصرف (بيروت) وقومندان الموقع وهولو باشا المتقدم الذكر".

صباح نهار الخميس في 16 ايار 1883 توجَّه واصا باشا الى بتدّين (مركز الحكومة الصيفي) بطريق سوق الغرب، ولما انتشر الخبر هرع لملاقاته، عند جسر القاضي، غندور بك السعد وانجاله واقاربه المشايخ آل الخوري وبمعيتهم جمهور من الاهلين وعلى وجوههم سمات الفرح ودلائل الابتهاج. وحظوا بمقابلة المتصرف، فشملهم بوافر التفاته، وانصرفوا من لدنه قريري النواظر طيّبي الخواطر، باسطين اكفّ الضراعة للمولى المتعالي لتأييده وتأييد السلطنة الابدية الدوام.

وفي مساء الليلة ذاتها بزغت من دار الوجيه المذكور، وكامل قرية عين تريز، اشعة الانوار الاصطناعية، وكانت ليلة زاهرة بصنوف التزيين ومعدّات الابتهاج".

جرت للمتصرف الجديد استقبالات حافلة في القرى التي مر فيها موكبه، لاسيما دير القمر التي قاسى سكانها كثيرا من ظلم سلفه رستم باشا الذي سعى بنفي المطران بطرس البستاني، وافرغ صندوق البلدية من المال، وحرّض عليهم ضابط المنطقة الامير عمر الشهابي للانتقام منهم لانهم ناصروا اسعد بك كرم مغضوب الباشا الذي وضعه في الاقامة الجبرية ببلدتهم.

وبلغت الزينة اشدّها في بتدين، مقر الحاكم الجديد، حيث توافد الى السرايا الاعيان والكبراء ورجال الدين ووفود المناطق يهنئونه بسلامة الوصول ويتسابقون على نيل عطفه ورضاه.

واتّبع اغلب الباشاوات الخطة ذاتها في سيرهم على الطرق، وعند دخولهم الى السرايا (بعبدا) وخروجهم منها. وكان الباشا يقطن غالبا في بيروت ليكون على مقربة من ارباب السلطة وقناصل الدول تسهيلا لاعماله، فتُقلّه من بيروت الى بعبدا، شتاء، عربة لاندونيه، وفي الصيف عربة عادية من صنع الاستانة يجرّها زوج من الخيول المطهمة. كان يسير امامه جنديان من الفرسان مشرعَي السلاح، اي ان عقب البندقية مرتكز على فخذ الفارس بينما يكون رأسها موجها الى الفضاء. ويمشي وراء العربة ضابط خيّال يدعى الياور، ويركب الى جانب الباشا ضابط كبير اسمه السر ياور. وكان الناس يحيّون المتصرف في غدوه ورواحه، فيرد عليهم التحية بلطف وبشاشة.

وعند وصول عربة الباشا الى اول الطلعة المؤدية الى سرايا بعبدا كان يصوّت البوق (البرزان)، فتصطفّ شرذمة من جنود الضابطية امام

صفحات من لبنان

المتصرف فرنقو باشا.

الميرالاي ملحم ابوشقرا قائد الضابطية اللبنانية.

مدخل السرايا، وعلى راسهم ضابط، فيؤدون له التحية عند وصوله، وهنا يترجّل المتصرف ويدخل السرايا الى الدار الداخلية بين عزف الموسيقى والتحية العسكرية، ثم يسير صاعدا السلّم الحجرية فالممشى الغربي سائرا بخطوات موزونة. وكل مَن كان في احد المماشي عندئذ من المحامين والموظفين واصحاب الاشغال كان يتسمّر في مكانه من دون حراك وسط جو من الهيبة احتراما للمتصرف، ويبقون كذلك الى ان يلج مكتبه.

كان للسر ياور مكتب في السرايا يستقبل فيه اصحاب الحاجات وكل شخص يود مقابلة الباشا. فاذا التمس احدهم مقابلته ورُخّص له بها كان يدخل مكتب الحاكم بكل تأدب واحترام و"يضرب التحية لدولة افندينا"، وتجري المحادثات باحدى اللغتين الفرنسية او التركية، او بواسطة الترجمان اذا كان طالب المقابلة يجهل هاتين اللغتين.

وكانت بعلبك، في تلك الايام، مسلوخة عن جبل لبنان وتابعة للولاية عندما زارها واصا باشا لمشاهدة قلعتها العظيمة. وبعدما اتم زيارته لها امر بنقش اسمه فوق عتبة احد ابوابها، وهذا النقش باق الى يومنا. وكأني بالمتصرف كان يقول في قرارة نفسه: "سيذكر اهل لبنان متصرفهم القديم عندما تعود بعلبك الى احضان الوطن الام، فيرون اسمه منقوشا على صخور قلعتها المدهشة".

توفي واصا باشا في 29 حزيران سنة 1892، وكان عهده قد اشتهر بالفساد والرشوة وايذاء اللبنانيين. وكان صهره كوبليان، وغيره من اهل البلاد، من المرتكبين ايضا، وقد اشتهر امرهم في طول البلاد وعرضها. وفي يوم مأتمه ودفنه في الحازمية وقف احد المؤبنين امام جماهير المشيعين واخذ يلقي قصيدة بكى فيها العدل والنزاهة بموت هذا المتصرف، منتحلا الكلام باسم لبنان، وغامزا من قناة الذين لم ترقهم اعمال المتصرف الراحل ورجال بطانته. فانبرى الشاعر تامر الملاط - وكان من الذين نالتهم مظالم هذا العهد - معقبا على كلام هذا المؤبن بقوله:

"ان ما سمعتم يا سادة ليس هو بلسان اهل لبنان، بل هو بلسان المتكلم الشخصي، واما لسان عموم اللبنانيين فهو لا يتجاوز طلب العفو والرحمة للفقيد".

وساد الهرج والمرج جماهير المشيعين، وكادت تحصل فتنة بين حزب المتصرف الراحل والحزب المناوىء له، فاسرع تامر الملاط الى مغادرة الحازمية متوجها الى بيروت هربا من وجه رجال الامن، اذ سوف يلاحقونه بدعوى انتهاك حرمة الميت.

وبعد مرور يومين على هذا الحادث وُجدت رقعة في اراضي الحازمية مكتوب عليها هذان البيتان، وعُرف انهما من نظم تامر الملاط، وهما:

قالوا: قَضى واصا ووارَوهُ الثرى
فـــاجَبْتُهُمْ وانـــــا العَليـمُ بـذاتـه
رُنُّوا الفُلوسَ على بَلاط ضَريحـه
وانـــا الكفيـــلُ لَكُمْ بـرَدِّ حَياتَـه
وقد خمّسها اخوه شبلي بقوله:
ما لِلْمَظالِم افرَجَتْ عن ذي القُرى
وتَفَتَّتَـــتْ كَبِدُ اللئـــام تَحَسُّرا؟
قـولـــوا لنـــا بابيكُمُ مـــاذا جَرى؟
قالوا: قَضى وَاَصا وواروهُ الثَّرى
فاجَبْتُهُم، وانا العَليمُ بذاتِه:
قولـــــوا لمَنْ والوهُ في تَقْبيحه
مَهْـــلا بضَـــمِّ الجَفْن او تَقْريحَه
لا تَحْسَبوا ان لا مَرَدَّ لروحـــــه
رُنُّـــــوا الفُلوسَ على بَلاطِ ضريحَه
وانا الكفيلُ لكَمْ بِرَدِّ حَياتِه.

ونزولا عند طلب الدولة الالبانية، موطن واصا باشا الاصلي، جرى نقل بقاياه من مقبرة الباشاوات في الحازمية الى بلاده. وقد حضرت اعمال نبش المقبرة.. ورأيت جمجمة متصرف لبنان القديم من دون الفك الاسفل، وكان شَعر الذقن الاسود لا يزال عالقا بجلد الوجه. وصار نقل رفاته، ورفات زوجته وابنته، في ثلاثة نعوش الى البانيا في حفلة رسمية وشعبية مهيبة في ايار 1978.

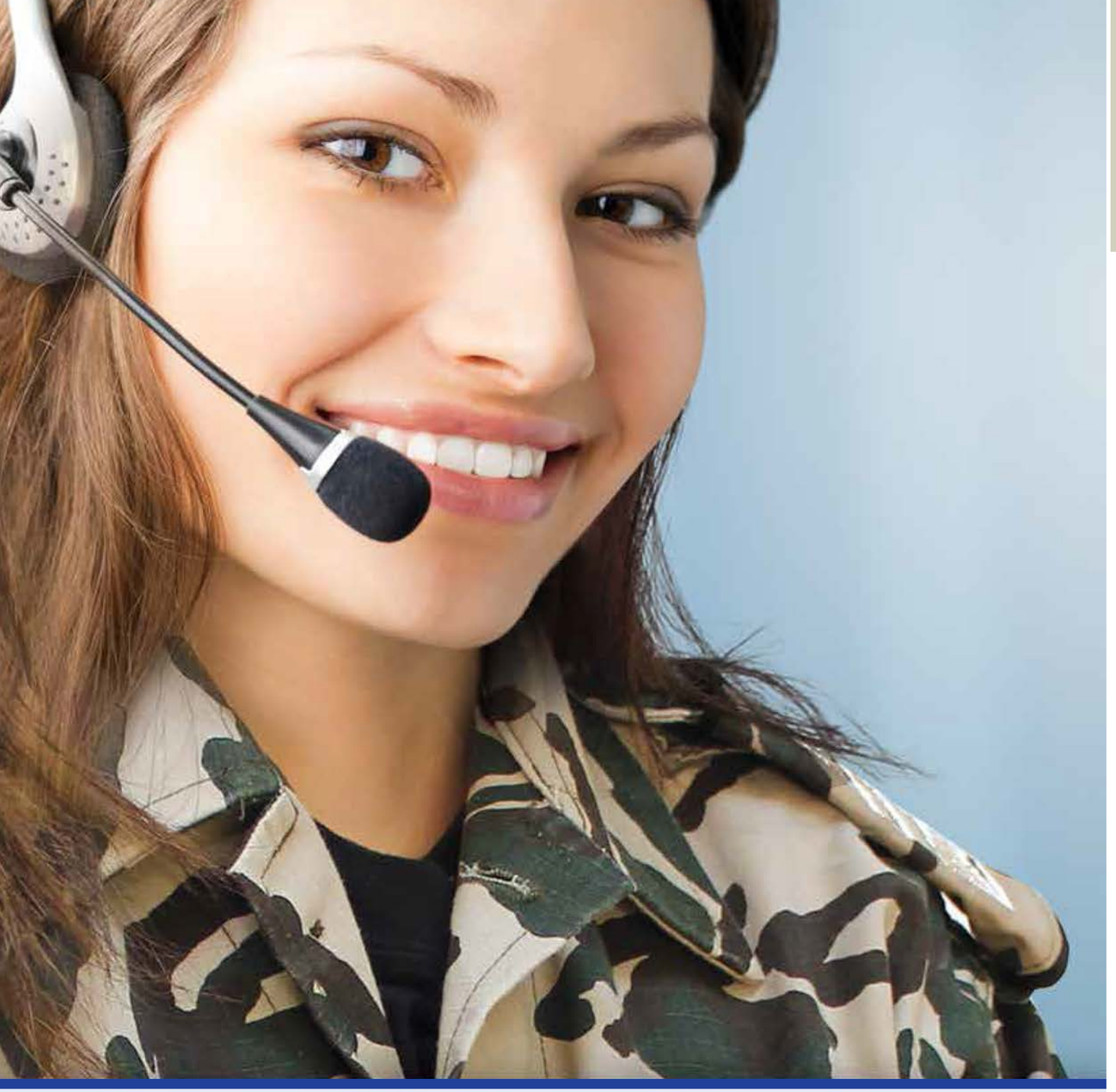

أمنك بأمان

بالتعاون مع المديرية العامة للأمن العام،
تعرض إذاعة "صوت لبنان" ٩٣.٣،
برنامج "أمنك بأمان"، والذي يُبثّ كلّ
يوم إثنين عند الساعة ١١.٢٠ صباحًا

المديرية العامة للأمن العام